

ورفعه، فدعا له، وبدأه أبو الحسن، وقال: أتقول بمقالة أهل الاعتزال؟ قال: لا. قال: وبالرفض؟ قال: لا، ولكنني أنكرُ على هؤلاء سماع الغناء والضرب بالقصب، وهو خلاف الشرع. وافترقوا.

[وذكره هلال بن الصائب وقال: حُمل من داره بقطيعة النصارى إلى المسجد الجامع بالمدينة - يعني جامع المنصور - ودُفن في جوار قبر أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى].

السنة الثامنة والتسعون وثلاث مئة

فيها في يوم عاشوراء عمل أهل الكرخ ما جرت به العادة من النوح وتعليق المُسوح على رؤوسهم^(١) وقصدوا مقابر قريش، فلم يتعرّض لهم أحد، واتفق يوم عاشوراء يومَ المهرجان، فأخّره عميد الجيوش إلى اليوم الثاني، ثم جلس وعمل سماًطاً على العادة، وجلس للتهنئة.

وفي المُحرّم تعرّض بنو هلال - وكانوا ستّ مئة فارس - لحاجّ البصرة الذين انفصلوا عن حاجّ العراق عند الموضع المعروف بالسّاج، فأخذوا أموالهم وجمالهم، وأفلت من دخل البصرة على أقبح حالٍ من العُري والجوع والعطش، فيقال: إنهم أخذوا منهم مئة ألف دينار. وفي كانون سقط الثلج بالعراق سقوطاً عظيماً، فكان على وجه الأرض ذراعاً ونصفاً، وعمّ الكوفةً وواسطاً والبصرةَ والبطائح على هذا الوجه، ولم يُعهَد سقوطُ الثلج بالبصرة إلا في سنة تسعين ومئتين.

وفيها سار بدر بن حسنويه إلى الري معاوناً للسيدة أم مجد الدولة على عودها إلى موضعها، ومُرْتَباً لشمس الدولة أبي طاهر في الإمارة عوضاً عن أخيه مجد الدولة.

ذكر السبب:

كان الخطير أبو علي القاسم بن علي قد منع السيدة من التصرف، وقبض يدها، وأوحش مجد الدولة منها، ووضع الدّيلم، حتى قالوا: ما للنساء والملك؟ وكان وزيرها أبو سعد بن الفضل بالرّي، فأخافه، فهرب، فصعدت السيدة إلى القلعة

(١) في (خ) و(ب): رسومهم، والمثبت من (م) و(م).

وتحصّنت بها، فرتب الخطير تحتها جماعة يمنعونها من الخروج، فكانت في صورة المعتقلة، وكانت لها جارية تشبهها، فكانت تنزل كل يوم تأخذ لها من نهر تحت القلعة وتصعد، فألف الموكلون، وأرسلت السيدة إلى قوم من أهل الرسداق فيهم عصبية وفتوة، فوائقتهم على حملها إلى بلاد بدر بن حسنويه، فجاؤوا فنزلوا على النهر كأنهم عابرو سبيل، ونزلت ويدها الجرة كأنها الجارية، وركبت دابة، وساروا بها إلى بلد بدر بن حسنويه، وذلك في سنة سبع وتسعين، وكان في نفس بدر من الخطير، فأكرمها بدر، وسار بنفسه معها، وكان ابنها شمس الدولة بهمدان، فوافاها بعساكر همدان، وقبل بدر بين يديه الأرض، وساروا إلى الري، فأطلق الخطير الأموال، واستخلف الديلم، ووقع القتال، وجرى على الري أمر عظيم من الحريق والنهب والقتل، وظفر بدر بالخطير، فقبض عليه، وقبضت السيدة على ابنها مجد الدولة، وأصعدته إلى القلعة، وأفعدت شمس الدولة ابنها على السرير، وعادت إلى ما كانت عليه، وعاد بدر إلى بلاده، وأخذ الخطير معه وعدبه حتى مات، وتغيّرت أخلاق شمس الدولة، وتمكنت منه المرة السوداء، فرجع إلى همدان، وساست السيدة الملك، ودبرت الأمور أعظم من الرجال، وكانت تجلس من وراء ستير خفيف، والعارض والوزير جالسان بين يديها يخاطبانهما وتخاطبهما، وهما يُنفذان الأمور، وكانت قد عزمّت على قبض شمس الدولة، فهرب إلى قم.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين السنة والشيعه ببغداد، وسببها أن بعض الهاشمين من أهل باب البصرة قصد أبا عبد الله محمد بن النعمان المعروف بابن المعلم - فقيه الشيعة - في مسجده بالكرك في بدرج رباح، ونال منه، فثار أصحابه، واستنفروا أهل الكرك، وصاروا إلى دار القاضي أبي محمد ابن الأكفاني وأبي حامد الإسفراييني، فسبواهما وشمواهما، ونشأت الفتنة، وركب صاحب المعونة، واجتهد في كف العامة، وكتب إلى عميد الجيوش وهو بالنعمانية، واتفق أن أبا حازم محمد بن الواسطي أحضر مصحفاً إلى دار الخلافة، دكر أنه مصحف عبد الله بن مسعود، فقبّل بمصحف عثمان

- رضوان الله عليه - والمصاحف المألوفة، فخالفها، فجمع القضاة والأشراف والفقهاء في رجب في دار الخلافة، وأخرج المصحف إليهم، وسئلوا عنه، فأفتى أبو حامد الإسفراييني بتحريقه، فأحرق بمحضر منهم، وبلغ الخليفة أن رجلاً كيئالاً - يُعرف بابن قراح - حضر المشهد بالحائر ليلة نصف شعبان، وسب من أحرق المصحف، فتقدم إلى صاحب المعونة بالقبض عليه، وأمر بقتله، وكان من الشيعة، وتولاه جماعة من الأتراك، فقتل بالحلبة^(١) لتسع بقين من شعبان، وثار أهل الكرخ، ووقعت الفتنة بين السنة والشيعة، وقصد أحداث الكرخ دار أبي حامد، فانتقل عنها إلى دار القطن، وصاحوا: حاكم يا منصور. وبلغ القادر، فأنفذ الحول^(٢) الذين على بابه لمعاونة السنة، وتكاثرت الجموع، وساعدتهم الأتراك، وأحرقوا بعض الكرخ ومُعظم الأسواق ونهبوها، وركب نواب المملكة، وعاتبوا الغلمان الترك، وردوهم وقصد من الغد الأشراف والطالبيون ووجوه التجار بالكرخ دار الخليفة، وتبرؤوا مما فعله السفهاء، وسألوا جراستهم في منازلهم، فعفا القادر عنهم، وروسل عميد الجيوش، فدخل بغداد في حادي عشر رمضان يوم الخميس، فأخرج ابن المعلم إلى سورا^(٣)، وقبض على رؤوس الفتنة، وقتل البعض، وحبس البعض، وقامت الهيبة، ورجع أبو حامد إلى داره، ومنع القصاص من الوعظ، وشفع أبو الحسن علي بن مزيد في ابن المعلم، فرد إلى منزله، وراسل القادر عميد الجيوش في معنى القصاص والوعاظ، فردهم، وشرط عليهم أن لا يتكلموا في ما يوجب الفتنة، واستقامت الأمور.

وفيها زلزلت الدينور، فهدمت المنازل، وأهلكت أكثر الناس. وقيل: أهلكت ستة عشر ألف إنسان سوى من ساخت به الأرض، وخرج من سلم من البلد إلى الصحراء، وبنوا لهم أكواخاً من القصب، وذهب من الأموال والأمتعة ما لا يُعد^(٤) من البلد ولا يُحصى.

(١) الحلبة: محلة واسعة في شرقي بغداد. معجم البلدان ٢/ ٢٩٠.

(٢) الحول: الحشم. الصحاح (حول).

(٣) سورا: موضع إلى جنب بغداد. معجم البلدان ٣/ ٢٧٨.

(٤) في (خ) و (ب): يُعد، والمثبت من (م) و (م). (١م).

وَهَبَّتْ بِدَقُوقَا رِيحٌ سَوْدَاءٌ^(١)، ففَلَعَتِ المَنَازِلَ والنَّخْلَ والزَيْتُونَ، وَقَتَلَتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، وَامْتَدَّتْ إِلَى تَكْرِيتِ، ففَعَلَتْ^(٢) مِثْلَ ذَلِكَ، وَكَذَا فَعَلَتْ بِفَارَسِ، وَأُخْرِبَتْ شِيرَازَ، وَغَرِقَ بِسِيرَافِ^(٣) بِهَذِهِ الرِّيحِ مَرَكَبٌ كَثِيرَةٌ.

وَوَقَعَ بِالعِرَاقِ بَرْدٌ، فِي كُلِّ بَرْدَةٍ مِئَةٌ دِرْهَمٌ، سِوَى مَا ذَابَ مِنْهَا.

وَفِيهَا هَدَمَ الحَاكِمُ بَيْعَةَ قِمَامَةَ - الَّتِي بِالبَيْتِ المَقْدَسِ - وَغَيْرَهَا مِنَ البَيْعِ وَالكُنَائِسِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ، وَأَلْزَمَ أَهْلَ الذِّمَّةِ الغِيَارَ^(٤) [قَالَ هَلَالُ بنِ الصَّائِبِ: حَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بنِ الخَضِرِ المِصْرِيِّ قَالَ:] وَكَانَتِ العَادَةُ جَارِيَةً بِأَنَّ يَخْرُجَ النِّصَارِيُّ مِنَ مِصْرَ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي العِمَارِيَّاتِ إِلَى القُدْسِ؛ لِحُضُورِ فِضْحِهِمْ [فِي بَيْعَةِ قِمَامَةَ]، فَخَرَجُوا فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَلَى العَادَةِ مُظْهِرِينَ التَّجْمُلَ كَمَا يَخْرُجُ الحَاجُّ إِلَى مَكَّةَ، فَسَأَلَ الحَاكِمَ خَتَكِينَ العَضُدِيِّ [الدَّاعِي]، وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَنِ أَمْرِ النِّصَارِيِّ فِي قِصْدِ هَذِهِ البَيْعَةِ، وَكَانَ قَدْ عَرَفَ أَمْرَهَا لَمَّا كَانَ يَتَرَدَّدُ إِلَى الشَّامِ]، فَقَالَ: يَا مَوْلَانَا، هَذِهِ بَيْعَةٌ يُعَظَّمُهَا النِّصَارِيُّ وَيَقْصِدُونَهَا - يَوْمَ فِضْحِهِمْ - مِنْ كُلِّ المَوَاضِعِ، وَرَبِمَا صَارَ إِلَيْهَا مَلُوكُ الرُّومِ مَتَنَكِّرِينَ، وَيَحْمِلُونَ إِلَيْهَا الأَمْوَالَ وَالثِّيَابَ [وَالسُّتُورَ وَالفُرْشَ]، وَيَصُوغُونَ لَهَا القِنَادِيلَ وَالصُّلْبَانَ وَالأَوَانِي مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، فَإِذَا حَضَرُوا يَوْمَ الفِضْحِ أَظْهَرُوا زَيْتَهُمْ، وَنَصَبُوا صُّلْبَانَهُمْ، وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ، وَوَقَعَ الشَّبْهَ فِي عَقُولِهِمْ^(٥) أَنَّ قُؤَامَ البَيْعَةِ يُعَلِّقُونَ القِنَادِيلَ فِي بَيْتِ المَذْبَحِ، وَيُوصِلُونَ إِلَيْهَا النَّارَ بِدُهْنِ البَلَسَانَ^(٦) - وَمِنْ طَبِيعَتِهِ أَنَّهُ يَجْذِبُ النَّارَ - وَيَجْعَلُونَ فِيهَا دُهْنَ الزَّنْبِقِ، وَيَجْعَلُونَ بَيْنَ كُلِّ قَنَدِيلٍ وَمَا يَلِيهِ حَدِيدًا كَهَيْئَةِ الخَيْطِ مُتَصِلًا مِنْ وَاحِدٍ إِلَى وَاحِدٍ، وَيَطْلُونَهُ بِدُهْنِ البَلَسَانَ حَتَّى يَسْرِي فِي الجَمِيعِ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ مَهْدَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي البَيْعَةِ، وَأَنَّهُ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ فِضْحِهِمْ

(١) فِي (خ): أَسْوَدَ، وَالمُثَبَّتِ مِنْ بَاقِي النِّسْخِ.

(٢) فِي (ب) وَحَدَّثَهَا: ففَلَعَتْ.

(٣) تَحَرَّفَتْ فِي (م) إِلَى: بِشِيرَازِ.

(٤) الغِيَارُ: هُوَ أَنْ يَخْطُوا عَلَى نِيَابِهِمُ الظَّاهِرَةَ مَا يَخَالَفُ لَوْنَهُ لَوْنَهَا، وَتَكُونُ الحَيَاطَةُ عَلَى الكَتْفِ دُونَ الذَّيْلِ مَعْجَمُ مِثْنِ اللُّغَةِ ٤/٣٣٨.

(٥) فِي (خ): قُلُوبِهِمْ، وَالمُثَبَّتِ مِنْ بَاقِي النِّسْخِ.

(٦) البَلَسَانَ: شَجَرٌ لِحَبِّهِ دُهْنٌ حَارٌّ يُتَنَافَسُ فِيهِ. اللِّسَانُ (بِلس).

اجتمع النصارى والأقساء والرهبان [وجميع أهل دين النصرانية] في البيت الذي فيه القناديل، وأوقدوا الشموع [فيه]، وتنضاف إليه أنفاس ذلك الخلق العظيم، فيحمى المكان، ويتوصّل بعض القوّام إلى أن يُقَرَّب النارَ من^(١) الخيط فتعلقَ به، [ثم] تنتقل بين القناديل من واحد إلى واحد، ويُشعلُ الكلُّ، فيُقدَّرُ مَنْ يشاهد ذلك أن ناراً نزلت من السماء فأشعلت القناديل، فيكثر تهليلهم وتكبيرهم، ثم يتفرّقون، فلَمَّا سمع الحاكم ذلك أمر كاتب الإنشاء فكتب إلى والي^(٢) الرملة وإلى أحمد بن يوسف^(٣) الداعي أن يقصدا بيت المقدس، ويستصجبا القضاة والشهود والأشراف ووجوه البلد، وينزلا بيعة قمامة، ويبيحا للعمامة نهبها [وأخذ ما فيها]^(٤)، ويتقدّما بنقضها وتعفية أثرها، [وأن] يعملوا محضراً بذلك، [وينفذانه إلى حضرته] وقد كانت النصارى بمصر علمت^(٥)، فأرسلوا إلى البطرک [الذي كان بها] يُعرّفونه، فأخرج ما كان فيها من الجواهر والثياب والذهب والفضة، وورد أصحاب الحاكم [إلى بيعة قمامة]^(٦) فأحاطوا بها، وأباحوا للعمامة نهبها، فأخذوا من الباقي الموجود ما عظم قدره، وقُلعت حجراً حجراً، [وكتبوا بذلك محضراً]، وأخذوا فيه خطوط القضاة والعدول، وهدم كلَّ بيعة بالشام ومصر [فيقال: إنه هدم ألوفاً من البيع والكنائس، ونودي في أهل الدّمة: مَنْ أراد الدخول في الإسلام دخل، ومَنْ أراد النقلة إلى بلاد الروم كان آمناً، ومن أقام فليلبس الغيار، ويلتزم ما يشترط عليه، فخافوا أن يكون هذا خديعةً ليقتلوا، فأسلم أكثرهم، وخرج بعضهم إلى الروم، ومن كان ثقیلاً الظّهر أقام، فشرط عليهم تعليق الصُّلبان في صدورهم، وشرط على اليهود تعليق تمثالٍ على هيئة رأس عجل، ومنعهم من ركوب الخيل والتختم في اليمين، ورخص لهم في ركوب الحمير والبغال بالسروج

(١) في (خ): إلى، والمثبت من باقي النسخ.

(٢) تحرفت في (خ) إلى: وادي.

(٣) في (م) و (١م): يعقوب.

(٤) هذه الزيادة من (م) وحدها.

(٥) في (خ) و (ب): عملت، والمثبت من (م) و (١م).

(٦) هذه الزيادة من (م) وحدها.

السواذج^(١) والرُّكْب الخشب، وفي كلِّ صليب أربعة أرتال بالبغدادي، والخشبة التي يعلِّقها اليهودي كالمِدَقَّة، وزُنْها ستة أرتال، وإذا دخلوا الحمامات علَّقوا في أعناقهم أجراساً؛ لِيتميِّزوا عن المسلمين. فلَمَّا كان قُبيل قتل الحاكم عدلَ عن هذه الطريقة [معهم]، وفسَّحَ لمن أسلم منهم أن يرجع إلى دينه، فارتدَّ أكثرُهم، وأمر بإعادة البيع المهدومة، فرجعت إلى أحسن ما كانت عليه من العمارة، فيقال: إنه عاد في أسبوع واحدٍ من النصارى ستة آلاف حين أعادَ بيَعهم وكنائسهم، وأقرَّهم على دينهم^(٢)، [وفرحتِ العامَّة وقالوا: قد نَزَّه اللهُ مساجدنا ومواضع صلواتنا عمَّن يعتقد خلاف ما نعتقد. وقيل: إن الحاكم هو القائل: نُنَزِّه مساجدنا ومواضع صلواتنا عنهم. وهو غلظ على كلِّ حال، وقد كان الواجب قتل من ارتدَّ منهم عن الإسلام.

قلت: ما ذكره ابن الصائبي في صفة إشعال القناديل على الوصف الذي ذكره لا يصح؛ فإنِّي [سكنتُ في البيت المقدس عشرَ سنين، وكنتُ أدخلُ إلى القُمامة^(٣) في يوم فصحهم وغيره، وبحثتُ عن إشعال القناديل في يوم الأحد [ويسمونه] عيد النور، و[ذلك لأنَّ] في وسط القُمامة قُبَّة فيها قبرٌ يعتقد النصارى أنَّ المسيح عليه السلام لَمَّا صُلِبَ دُفِنَ فيه، ثمَّ ارتفع إلى السماء، فإذا كانت ليلة السبت في السَّحر دخلوا إلى هذه القُبَّة فغسلوا قناديلها، ولهم فيها طاقاتٌ مدفونةٌ في الرُّخام، وفي الطاقات قناديل قد أوقدت من السَّحر، وللقُبَّة شبابيك، فإذا كان وقتُ الظُّهر اجتمع أهلُ دين النصرانية [من كلِّ فجٍّ عميق]^(٤)، وجاء الأقسَاء فدخلوا القُبَّة، وطاف النصارى من وقت الظهر حولها يتوقَّعون نزول النور، فإذا قارب غروب الشمس تقول الأقسَاء: إن المسيح ساخطٌ عليكم. فيضجُّون ويبكون، ويرمون على القبر الذهب والفضة والثياب فتحصل [لهم] جملةٌ كبيرة، ويُرَدِّد القسيسُ هذا القولَ وهم يبكون ويضجُّون ويرمون ما معهم،

(١) السَّاذج: الخالص غير المشوب وغير المنقوش. المعجم الوسيط (سذج).

(٢) هكذا في (خ) (ب)، وجاء في (م) و (م) (١م): فيقال: إنه عاد في أسبوع واحد ستة آلاف إلى دينهم.

(٣) في (م) وحدها: القيامة. وكلاهما صحيح؛ قال ابن الأثير في الكامل ٢٠٩/٩: والعامَّة تسميها القيامة.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) وحدها.

فإذا غربت الشمسُ أظلمَ المكانُ، فيُغافلهم بعضُ الأقسَاءِ، ويفتح طاقةً من زاوية القُبَّة بحيث لا يراه أحد، ويوقد شمعةً من بعض القناديل، ويصبح: قد نزل النور، ورضي المسيح. وتخرج الشمعةُ من بعض الشبايك، فيضجُّون ضجَّةً عظيمةً [ويقولون: نزل النور]، ويوقدون الفوانيس، ويحملون هذه النارَ إلى عكا وصور وجميع بلد الفرنج، حتى روميَّةَ والجزائرِ، وقسطنطينيةَ وغيرها؛ تعظيماً لها.

وحدثني جماعةٌ من المجاورين بالقدس، قالوا: لما فتح صلاح الدين - رحمه الله - القدس وجاء يوم الفِضْح، جاء بنفسه فدخل القُبَّة [التي فيها القبر] وقال: أريد [أن] أشاهد نزولَ النور. فقال له البطرك: تُريد أن تضيِّع علينا وعليك أموالاً كبيرة^(١) بقعودك عندنا، فإن أردت المالَ فقم عتاً. فقام، فما بلغ باب القُبَّة حتى صاحوا [وقالوا]: نزل النور. فقال بعض الحاضرين: [من الطويل]

لقد زعمَ القسِّيسُ أنَّ إلهَهُ يُنَزِّلُ نوراً بكرةَ اليوم أو غدِ
فإن كانَ نوراً فهو نورٌ ورحمةٌ وإن كانَ ناراً أحرقت كلَّ مُعتدِ
يُقربُّها القسِّيسُ من شِعْرِ دَقْنِهِ فإن لَمْ تُحرقْها وإلا أقطعوا يدي
وحدثني جماعةٌ من أصحاب صلاح الدين - رحمه الله - أنه عزم لما أخذ الفرنج على أن يُخربَ قُمامةَ ويُعقِّي أثرها، فقال: نُحضرُ البطركَ والأقسَاءَ والنصارى، ونحفِرُ مكانَ القبرِ حتى يطلع الماء، ونرمي الترابَ في البحر، ونقول: هذا ترابُ قبرِ إلهكم؛ لتقطع أطماعهم عن زيارته ونستريح منهم. فقال له أعيان دولته: إن أطماعهم لا تنقطع بهذا، وليس مُرادهم مكانَ القبر، إنما هم يعتقدون في نفس القدس، وقُمامةَ عندهم أفضلُ من غيرها، وربما أُخربوا الجامع الذي بالقُسطنطينيةَ والمساجدَ التي في بلادهم، وقتلوا مَنْ عندهم من المسلمين، ثمَّ إنهم إنما يصانعونك على القدس لأجل قُمامة، فإذا فعلت ذلك زال ما يصلحونك لأجله^(٢)، ثم تبطل عليك أموالٌ عظيمة، فتتضرُّ وهم لا ينضروُن. فسكت عن خرابها.

ولم يحجَّ في هذه السنة أحد.

(١) هكذا في (خ)، وفي باقي النسخ: عظيمة.

(٢) في (م): زال ما يصانعونك عليه أو لأجله!.

وفيهما توفِّي

أحمد بن إبراهيم^(١)

أبو العباس، الضَّبِّي، كان رئيساً فاضلاً، ولمَّا احتُضِر بعث ابنه إلى أبي بكر الخُوَارَزْمِي شيخ الحنفية يسأله أن يتناح له تربةً بكَرْبَلَاء من الشريف أبي أحمد الموسوي والد المُرْتَضَى، بخمس مئة دينار، فبعث بالدنانير إلى الشريف، فقال: معاذَ اللهِ، هذا رجلٌ رَغِبَ فينا، ولجأ إلى جوار^(٢) جدي، لا آخذ لتربيته ثمناً. فلمَّا خرج تابوته خرج الشريفُ معه والأشرافُ، وشيَّعوه إلى جامع برائا، وصلَّوا عليه، ومعه القضاة والعدولُ، وبعثَ معه خمسين راجلاً يُوصِلونه إلى كَرْبَلَاء.

عبد الله بن محمد^(٣)

أبو محمد البخاري، الخُوَارَزْمِي، الفقيه، الشافعي، كان فصيحاً أديباً، يقول الشعر على البديهة، ويرتجل الخطب الطوال من غير رَوِيَّة، ويُنشئ الكتب، قصد صديقاً له ليزوره فلم يجده في داره، فكتب على بابه وقال: [من الخفيف]

كَمْ حَضَرْنَا وَلَيْسَ يُقْضَى التَّلَاقِي
إِنْ أَغْبَ لَمْ تَغْبُ وَإِنْ لَمْ تَغْبُ غِبْدُ
وَقَالَ: [من المنسرح]

ثَلَاثَةٌ مَا اجْتَمَعْنَ فِي رَجَلٍ
ذُلُّ اغْتِرَابٍ وَفَاقَةٌ وَهَوَى
يَا عَاذَلَ الْعَاشِقِينَ إِنَّكَ لَوُ
فَإِنَّهُمْ لَوُ عَرَفْتَ صَوْرَتَهُمْ
وَكَاثَ وَفَاتَهُ بِيغْدَادُ.

(١) معجم الأدياء ٢/ ١٠٥ - ١٢٢.

(٢) بعدها في (م) زيادة: تربة.

(٣) تاريخ بغداد ١٠/ ١٣٩ - ١٤٠، والمنتظم ١٥/ ٦٣.

(٤) في نشوار المحاضرة ٦/ ١٣٧: عدل.

عبد الواحد بن نصر^(١)

ابن محمد بن عبيد الله بن عمر بن الحارث بن المطلب المخزومي، أبو الفرج، البيّغاء [كذا نسبة الخطيب، وقال الحافظ ابن عساكر: أصله من نصيبين، قدم دمشق غير مرة، وله أشعارٌ يصف فيها دير مُرّان ودمشق، وأوقاته فيهما، وإنما سُمّي البيّغاء] للثغّة كانت في لسانه، [وكان أديباً، فاضلاً، شاعراً، مجيداً، كاتباً، مترسلاً، مدح الأمراء والفضلاء والأكابر والعلماء وغيرهم].

قال الثعالبي: كان نجم الآفاق، وشمّامة الشام والعراق، وظرف الظرف، وبنوع اللطف، وأوحد زمانه في النظم والنثر، ومن شعره - قالوا: وكان أمياً لا يُحسن الكتابة، وهذا عجيب -: [من الوافر]

أكلٌ وميضٌ بارقةٌ كذوبٌ أما في الدهرِ شيءٌ لا يُريبُ
تشابهتِ الطباعُ فلا دنيٌّ يحنُّ إلى الثناءِ ولا لبيبُ
وشاعَ البخلُ في الأشياءِ حتّى يكادُ يشخُّ بالريحِ الهبوبُ
وكيفَ أخصُّ باسمِ العيبِ شيئاً وأكثرُ^(٢) ما نُشاهدُهُ معيبُ

وقال: وكتب بها إلى عميد الجيوش: [من المتقارب]

سألتُ زماني بمن أستغيثُ فقال استغيثُ بعميدِ الجيوشِ
فناديتُ مالي بهِ حرمةً فجوابَ حوشيتِ منْ ذا وحوشي
رجاؤك إياه يُدنيك منه ولو كان بالصّينِ أو بالعريشِ
نبتتْ بي دارٌ وفرّ العبيدُ وأودتْ ثيابي وبغتْ فروشي
وكنتُ ألقبُ بالبيّغاءِ قديماً فقد مزقَ الدهرُ ريشي
وكانَ غذائي نقيُّ الأرزِ فها أنا مقتنعٌ بالحشيشِ

وكتب إليه أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ من الحبس وقد زاره في محبسه

فقال: [من الطويل]

(١) تاريخ بغداد ١١/١١، وتاريخ دمشق ٤٤/٤٧ - ٥٥ (طبعة مجمع اللغة العربية)، وبتيمة الدهر

٢٩٣/١ - ٣٣١، والمتنظم ١٥/٦٤ - ٦٦. وينظر السير ١٧/٩١.

(٢) في (خ): وأكره، والثبت من (ب).

يزيدك صَرْفُ الدَّهْرِ حَظًّا إِذَا نَقَصَ
فأَرْخِضَهُ والمَبِيعُ غَالٍ ومُرْتَخِضُ
شَفَّتْ قَرَمًا^(١) من صَاحِبِ لَكَ قَدْ خَلَصَ
فَوَاقًا^(٢) كما يَسْتَفْرِصُ السَّارِقُ الفُرْصَ
وأَوْجَسَتْ خَوْفًا مِنْ تَذَكُّرِكَ القَفْصِ
إِذَا عَايَنَ الأَشْرَاكَ تُنْصَبُ لِلقَنْصِ
إِذَا أَنشَدَ المَنْظُومَ أو دُرِّسَ القَصَصَ
ومن بُنْدِقِ الرَامِي وَمِنْ قَصَّةِ المِقْصِ
لِفُرْسَانِكُمْ عِنْدَ الطَّرَادِ^(٩) بِهَا قَعَصُ
إِذَا الدَّهْرُ مِنْ أَحْدَائِهِ جَرَعَ الغَصَصُ

وبدَرَ تَمَامَ مُذْ تَكَامَلَ مَا نَقَصَ
هَلَالٌ تَوَارَى بِالسَّرَارِ فَمَا خَلَصَ
لِسُودِدِهِ فِي حُطَّةِ المَشْتَرِي حِصَصُ
عَلِمْتُ بِأَنَّ الحُرَّ بِالبِرِّ يُقْتَنَصُ
بِلُقْيَاكَ إِذْ بِالحَزْمِ تُنْتَهَرُ الفُرْصُ

أَبَا الفَرْجِ اسْلَمَ وَابْتَقَ وَانْعَمَ وَلَا تَزَلْ
مَضَتْ مَدَّةٌ تَسْتَامُ وَصَلَّكَ غَالِيَا
وَآنَسْتَنِي فِي مَجْلِسِي بِزِيَارَةِ
وَلَكِنَّهَا كَانَتْ كَحَسْوَةِ طَائِرٍ
وَأَحْسِبُكَ اسْتَوْحَشْتَ مِنْ ضَيْقِ مَحْسِي
كَذَا الكُرْزُ^(٣) اللَّمَّاحُ يَنْجُو بِنَفْسِهِ
فَحَوْشِيَّتْ يَا فُسَّ الطَّيُورِ^(٤) فَصَاحَةٌ
مِنَ المِنْسَرِ^(٥) الأَشْغَى^(٦) وَمِنْ حَزَّةِ المُدَى
وَمِنْ صَعْدَةٍ فِيهَا مِنَ الدَّبْقِ^(٧) لَهْذَمٌ^(٨)
فَهَذِي دَوَاهِي الطَّيْرِ وَقِيَّتْ شَرَّهَا
فَأَجَابَهُ يَقُولُ: [مِنَ الطَّوِيلِ أَيْضًا]

أَيَا مَاجِدًا مُذْ يَمَّمُ المَجْدَ مَا نَكَصَ
سَتَخَلُصُ مِنْ هَذَا السَّرَارِ^(١٠) وَأَيُّمَا
بِرَأْفَةِ تَاجِ المِلَّةِ المَلِكِ الَّذِي
تَقَنَّنَصَتْ بِالإِحْسَانِ سُكْرِي وَلَمْ أَكُنْ
وَصَادَفْتُ أَدْنَى^(١١) فُرْصَةً فَانْتَهَرْتُهَا

(١) القَرَمُ: اشتداد الشهوة إلى اللحم. المعجم الوسيط (قرم).

(٢) الفَوَاقُ: الوقت بين الحلبتين، أو: الوقت بين قبضتي الخالب للضرع. المعجم الوسيط (فوق).

(٣) الكُرْزُ: البازي. الصحاح (كرز).

(٤) المراد به فُسُّ بن ساعدة، وهو الخطيب الجاهلي المشهور، الذي يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي البَلَاغَةِ وَالفَصَاحَةِ.

(٥) المنسر: هو ما ينتف به الطائر الجارح الأشياء، وهو لغير الجارح كالمقار. المعجم الوسيط (نسر).

(٦) يقال: شَغِيَتْ أَسْنَانُهُ؛ إِذَا اخْتَلَفَتْ نَبْتَهَا وَتَرَكَبَتْ. أساس البلاغة (شفي).

(٧) الدَّبْقُ: كل شيء لزج يصاد به الطير. المعجم الوسيط (دبق).

(٨) اللَهْذَمُ: كل شيء قاطع من سنان أو سيف أو ناب. المعجم الوسيط (لهزم).

(٩) هكذا في النسخة الوحيدة التي ذكرت تلك الأبيات وهي نسخة (خ)، وفي المصادر: الطعان.

(١٠) السَّرَارُ أو السَّرَارُ أو السَّرَرُ: آخر يوم أو يومين في الشهر وذلك عندما يستسرُّ الهلال. اللسان (سرر).

(١١) المثبت من البيتمة وغيرها من المصادر، وفي النسخة الخطية: أسنى، ولا معنى لها!.

بدائع من مُستحسنِ الجِدِّ والرُّخصِ
وأحرزتُ ذرَّ البحرِ منها ولم أُغصِ
فكم لَقِبَ بالجورِ لا العدلِ مُختَرَصِ
وقلبك لي وَكُرَّ وصدرك لي قَفَصِ

وقال: [من البسيط]

أهوى مع الشَّوقِ إلَّا والعفافِ معي
أنِّي من المجدِ في مُرادِ مُستَمِعِ
تسعى لغير الرِّضا بالرِّيِّ والشَّبَعِ
إلَّا وقد جاوزت بي كلَّ مُمتنعِ
أرمي بها غَمَرَاتِ الموتِ لم تُطعِ
وفي حمى المجدِ مُضطافي ومُرتبَعِي
حتى جعلتُ دُرُوعَ اليأسِ مُدَّرَعِي
فإنَّهُ بِعِظَاتِي غيرُ مُنتفعِ

وقال: [من البسيط]

إنَّ كانَ لا الصبرُ يُسليها ولا الجزعُ
فالآنَ مُذْ غَبِثُمْ لم يبقَ لي طَمَعُ
أظنُّها بعدكم بالعيشِ تنتفعُ

أتتني القوافي الباهراتُ تُحمِّلُ الـ
فقابلتُ زهرَ الرِّوضِ منها ولم أكذ^(١)
فإن كنتُ بالبِغَاءِ قَدَمًا مُلقَّبًا
وبعدُ فما أخشى تقنُصَ جَارِحِ

سلوا الصبابةَ عني هلْ خَلُوتُ بِمَنْ
وحافظي من دواعي الحبِّ معرفتي
تأبى الدناءةَ لي نفسٌ نفائسُها
وهمةٌ ما أظنُّ الخطَّ يُدرِكُها
لا صاحبشني نفسٌ إنْ هَمَمْتُ بأنْ
على جنابِ العلا جَلِّي ومُرتَحَلِي
وما نضوتُ لباسَ الذُّلِّ عن أُملي
وكلُّ مَنْ لم تودِّبهُ خلائقُهُ

وقيل: إنَّها للوأوءِ الدمشقي.

وقال: [من البسيط أيضاً]

يا مَنْ تشابهَ منه الخَلْقُ والخُلُقُ
توريدُ دَمَعِي مِنْ خَدَيْكَ مُختَلَسُ
لم يبقَ لي رَمَقُ أشكو إليك بِهِ

فما تُسافرُ إلَّا نحوهُ الحَدَقُ
وسُقْمُ جِسمِي من جَفْنَيْكَ مُستَرَقُ
وإنما يتشكَّى مَنْ بِهِ رَمَقُ

(١) في تاريخ دمشق: يكذ، وفي البيهية: أرع.

وقال في سيف الدولة بن حمدان: [من البسيط أيضاً]

وواصلتني صلات منكَ رُحْتُ بها وواصلتني صلات منكَ رُحْتُ بها
 فليَنْظُرِ الدهرُ عُقبِي ما صبرتُ له فليَنْظُرِ الدهرُ عُقبِي ما صبرتُ له
 يا عارضاً لم أئِثِّمْ مُدُّ كُنْتُ بَارِقَهُ يا عارضاً لم أئِثِّمْ مُدُّ كُنْتُ بَارِقَهُ
 رُوَيْدَ جودِكَ قد ضاقتُ به هِمَمِي رُوَيْدَ جودِكَ قد ضاقتُ به هِمَمِي
 لم يبقَ لي أملٌ أرجو نَدَاكَ به لم يبقَ لي أملٌ أرجو نَدَاكَ به
 وكتب إلى المحسن بن علي القاضي التنوخي^(٢) يتوجَّع له من محنةٍ لِحِقَّتْهُ: مُدُّ
 النَّعْمِ - أطالَ اللهُ بقاءَ سيدنا القاضي - بغفلاتِ المسارِّ، وإن طالتُ، أحلامٌ، وساعاتُ
 المِحنِ، وإن قَصُرَتْ بشوائبِ الهمومِ، أعوامٌ، فأحظانا بالمواهبِ من ارتبطها بالشكرِ،
 وأنهضنا بأعباءِ المصائبِ مَنْ قاومها بَعْدَ الصبرِ، إذ كان أولُها بِالْعِظَةِ مُذْكَراً، وآخرها
 بمضمونِ الفرجِ مُبَشِّراً، وإنما [يتمسكُ بتفريطِ العجزِ، ويُفسد] ضالَّةَ الحكمةِ مَنْ كان
 بسنةِ الغفلةِ مغموراً، وبضعفِ الرأيِ والمِثَّةِ مقهوراً، وفي انتهازِ فُرْصِ الحزمِ مُفَرِّطاً،
 ولمُرْضِي ما اختاره اللهُ مُتَسَخِّطاً، وسيدُّنا القاضي أنورُ بصيرةٍ، وأظهرُ سريرةٍ، وأكملُ
 حزمًا، وأنفذُ مضاءً وعزمًا، من أن يتسلَّطَ الشكُّ على يقينه، أو يقدحَ اعتراضُ الشُّبهِ في
 فتوَّتهِ ومروءتِهِ ودينِهِ، فليتلَّقَ قضاءَ اللهِ بالرضا والتسليمِ، فهو ممن قال اللهُ فيهم: ﴿إِلَّا
 مَنْ أَىَّ اللهُ يَغْلِبْ سَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٨٩].

وكانت وفاته في شعبان، ومن شعره: [من مجزوء الكامل]

أشْتَأَقُهُ فَإِذَا بَدَا أَطْرَقْتُ^(٣) مِنْ إِجْلَالِهِ
 وَأَصْدُّ عِنْدَهُ إِذَا دَنَا وَأَرُومٌ طَيِّفَ خِيَالِهِ
 لَا خِيفَةَ بَلْ هَيْبَةَ وَصِيَانَةَ لَجْمَالِهِ
 فَالْمَوْتُ فِي إِعْرَاضِهِ وَالْعَيْشُ^(٤) فِي إِقْبَالِهِ

(١) في تاريخ دمشق: بعزم، والمثبت من النسخة الخطية، وهو الموافق لما في تاريخ بغداد والبيئمة وغيرها.

(٢) الفرج بعد الشدة ١٥٢/١ وما بين حاصرتين منه.

(٣) في تاريخ دمشق: أعرضت.

(٤) في تاريخ دمشق: والموت.

أبو منصور بن بهاء الدولة

وقيل: اسمه بُؤيه، توفّي بالبصرة يوم الأحد ثاني شعبان، وكان أبوه خائفاً عليه، وقد منع الجند من الكلام معه، وضيّق عليه، وعزم على الخروج إلى تُسْتَر، فأراد الخروج معه، فحمّ حمّى حادّة قبل أن يخرج أبوه، فقيل لأبيه: إنه محمومٌ ولا حركة به، وإن أخرجته تليف. فقال: لا بُدّ من حمّله ولو في فردة. فقال الأطباء: متى خرج لم يسلم. فتركه. وخرج، واشتدّ مرضه، وانصبّت إلى فخذيه مادةٌ احتيج إلى فتحها، فقالوا: لا بُدّ من مشاورة أبيه، فإلى أن أتى الجواب مات، وكتبوا إلى أبيه بوفاته، فلم يتجاسر أحدٌ على إعلامه، فأمر أبو الخطاب الفراشين أن يرفعوا المخادّ من مجلسه إذا قام، ويجعلوا مكانها كساءً طبرياً، ففعلوا، فأحسّ بالقصّة، ودخل عليه أبو الخطاب في قميصٍ ورداء، فقال: ما الذي ورد من حال أبي منصور؟ فدمعت عينا أبي الخطاب، فضرب حينئذٍ بهاء الدولة بنفسه إلى الأرض، وجزع جزعاً شديداً، ولبس السواد، ودخل عليه الناسُ حفاةً بالسواد، وهجر الأكل والشرب والنوم، وواصل البكاء والحزن إلى أن عاد إلى البصرة، وبقي مدةً، فاجتمع إليه وجوه الدّيلم وعزّوه، وسألوه أن يرجع إلى عادته، ففعل^(١).

السنة التاسعة والتسعون وثلاث مئة

فيها لحقّ الحاجّ عند عودهم من مكة اعتراضٌ من العرب، فقرّر عليهم أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوي مالاً، ودخل الناسُ الكوفة بعد أن لا قوا مشقّة شديدةً، وأقاموا بها خائفين من الطُّرق، حتى أرسل إليهم أبو الحسن علي بن مزّيد أخاه حماداً، فحملهم إلى المدائن، ثم دخلوا بغداد.

وفيها استوهب المناصبُ أبو الهيجاء من عميد الجيوش [- البستان الذي يقال له: النجمي، وكان بإزاء دار الخلافة -]^(٢) فشرع في مرّمة مسناته، وإصلاح روشته، فنقل

(١) القصة وردت مختصرةً في عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ١/ ٤٣٥.

(٢) ما بين حاصرتين هنا وفي الوضع الآتي من (ب).